مقياس الأنثربولوجيا الاقتصادية

أولى ماستر علم اجتماع تنظيم وعمل /سداسي 01

د/ سعيدة حمود

عنوان المحاضرة سوسيولوجيا التبادل بين المجتمعات البدائية والحديثة

تمهيد

يقول كارل ماركس في إطار التبادل إن كثافة التبادل كما هي الحال محددة بتنمية و تنظيم الانتاج ، فعندما يحمل المنتج انتاجه إلى السوق فإنه يوزعه عن طريق التبادل وفي الواقع هو يهدف من خلال ذلك إلى تخصيص اعادة تشكل عناصر عملية الإنتاج كالسلع المعيشية ، فالتبادل هو تداول منتجات بمقابل ، فما هو إلا شكل من أشكال الاتصال، لذا فهو مجرد لغة أي مجموعة من الإجراءات والعمليات التي تهدف إلى تأسيس عملية التواصل بين الأفراد والجماعات فقواعد الزواج والقرابة تصلح لتأمين انتقال النساء بين الجماعات، مثلما تصلح القواعد الاقتصادية لتأمين انتقال الأموال والخدمات والقواعد اللغوية لانتقال معاني الآثار. حيث يظهر التبادل في المجتمع البدائي على ثلاثة أشكال تبادل للنساء وتبادل للأموال وتبادل للكلمات، وفي هذا كله يتجلى قانون التبادل كقانون منظم لهذه المجتمعات.

ركزت الأنثروبولوجيا الاقتصادية على عنصر التبادل لماله من أهمية في تحديد شكل وطبيعة العلاقات التي تنشأ بين الأفراد والجماعات حيث أن الذي درس النسق الاقتصادي بشكل عام فهو يدرس الإنتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك وهذه الوظائف ليست مستقلة بل هي مكونة للنسق الاقتصادي الذي هو في حد ذاته جزء من النسق الاجتماعي العام لذلك يرى البعض أن الجماعات القرابية وفئات السن هي وحدات إنتاجية، وتكون شبكة القرابة نظم توزيع المواد والممتلكات، كما تنظم الطقوس والمواسم عمليات الإنتاج والاستهلاك وقد ظل موضوع التبادل يشكل المحور الرئيسي في مجال الأنثروبولوجيا الاقتصادية، ولعل نماذج التبادل في المجتمعات البدائية مثل البوتلاتش والكولا شكلت الموضوعات الأولى عند رواد الأنثروبولوجيا في الحقل الاقتصادي.

نظريات التبادل :

ينظر علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى العديد من العلاقات القائمة على أنها علاقات تبادل نشأت بطرق رئيسية ثلاث هي:

- التوسع في استخدام التحليل الاقتصادي ليغطي مجالا واسعا من نشطة (التركيز على الفرد.
- استخدام توليف من علم النفس السلوكي وعلم الاقتصاد (التركيز على الفرد).
- النظر إلى التبادلات بوصفها تعبيرا عن العلاقات الاجتماعية الباطنة (التركـ الجماعة.

وبناء على ذلك يمكن تحديد ثلاثة مداخل أساسية أهمها:

المدخل الأول: مدخل المنفعة الفردية

يفسر الاقتصادي " بلاو Blau " فعل التبادل داخل الحياة الاجتماعية بـ العلاقات الإنسانية تقريبا تمثل صورا للتبادل . وعلى الرغم من أن البشر هم أن يتفاوضوا حول الحب والصداقة أو الاحترام فإن "بلاو" يؤكد أن تحويل هذه الأمور كما لو كانت من صور تبادل السلع والخدمات فرايزر S.J.Frazer بتحليل ظاهرة التبادل في المؤسسات الاجتماعية تحليله لروابط القرابة وممارسات الزواج في المجتمعات البدائية استعـ المفاهيم من علم الاقتصاد النفعي لتفسير أنماط الزواج، فقد است ل الدوافع الاقتصادية، فوجد أن الأسترالي الأصلي يضطر بصفة عامة على الزوجة بمقايضة إحدى قريباته عادة ما تكون أخته أو ابنته وذلك لعدم امتلاكه للمال والثروة.
وتتضح الدوافع الاقتصادية للأفراد في المجتمع تساهم في تفسير مختلف الأنماط المؤسسة التي كونت طابعا ثقافيا معينا هي انعكاس لدوافع اقتصادية من خلال عملية الـتبادل، و استنتج فرايزر وفي سياق تحليله لمفهوم التبادل اعتبر النساء سلعة، ومن ثم فإن كل كمية كبيرة من هذه السلعة لمبادلتها يكون يمتلك السلطة والمـ رغلى وعلى هذا الأساس رأى فرايزر أن تبادل النساء بين الأستراليين الأصـ إلى التفاوت في السلطة والامتياز، فمن يمتلك أكثر من النساء وـا لبنات يعتبر ثريا، بينما يعد فقيرا كل من افتقد هذه الملكية وبالتالي ستطيع الحصول على زوجة في حالة كهذه لعدم امتلاكه لأي مقابل يدفع

المدخل الثاني: المدخل السلوكي

برى هومانز Homans أن البشر يمنحون المكافآت لبعضهم البعض وبالتالي فهم يتعلمون ممن يمنحونهم المكافآت السلوك الذي يجدونه مجزيا بالنسبة لهم ،فالنظر إلى عملية تبادل المكافآت بين البشر يمدنا بالقاعدة التي تقوم عليها بعض محاولات التوليف بين علم النفس السلوكي وعلم الاقتصاد، في الوقت نفسه يعتبر هذه النظرية فاشلة لأن علم النفس السلوكي يفسر أفعال الناس في الحاضر من جهة نموذج التعزيز الذي يرد عليها في الماضي ،بينما يفسر علم الاقتصاد أفعال الناس في الحاضر من جهة المنافع المتوقعة في المستقبل للتدليل على ذلك نعتمد على تجربة العالم الروسي pavlov Ivan كيف كانت الكلاب تستجيب لضوء كان يصاحب الطعام واستخلصت السلوكية ان كلا من الانسان والحيوان كائنات عضوية تسعى لتحقيق المنفعة، وتكمن في البحث عن المكافآت (أي تعظيم المنفعة بأقل عقاب. فالمكافآت هنا هي مجرد وسيلة لإعادة صياغة التصور الاقتصادي للمنفعة في حين يعبر العقاب عن تصور للتكلفة. حيث يرى السلوكيون أن المكافآت هي سلوك يلبي حاجات الكائن العضوي في البيئة، بينما العقاب هو سلوك الكائن العضوي أيضا الذي يعوقه من تلبية حاجاته كالألم.

لقد استعيرت هذه النظرية السلوكية للتبادل من التفسير النفعي (الاقتصادي)، حيث اعتمدت على فكرة المكافآت التي حلت مكان المنفعة لأن هذا الاستبدال يتيح لمنظري التبادل اعتبار السلوك مدفوعا بالحاجات السيكولوجية. بينما اعتبر هؤلاء السلوكيون التكلفة كعقاب وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم الألم الذي لا يسمح للبشر بتجنبه وإنما يسمح لهم بالاختيار بين بدائل عديدة في كثير من المواقف. أي أن الإنسان بفضل ذكائه وفكره المميز على الحيوان يستطيع إصدار سلوكيات من شأنها تحقيق

له أقصى حد من المكافأة بأقل قدر من العقاب ويستطيع هذا الأخير أن يكرر كل السلوكيات التي تمنحه مكافآت ويتجنب كل السلوكيات التي تكلفه أكثر للحصول على المنفعة. حيث يظهر هذا السلوك كاستنتاج لتصور ا قتصادي للمنفعة.

المدخل الثالث مدخل العلاقات الجماعية

ينظر "ليفي ستروس" إلى جملة التبادلات بين الناس على أنها تعبير عن وجود علاقات فيما بينهم ففي دراسته حول البنية الأولية للقرابة في الجماعات البدائية أعتبر تبادل النساء كعرائس بين عدة جماعات بدائية هو تبادل صريح للمنفعة reciprocitéوهذه المبادلة التي تدور بين ثلاثة أشخاص على الأقل يستفيدون من بعضهم البعض بصفة مباشرة. وهنا نجد ستروس" يتوصل إلى نوعين من التبادلات تبادل معمم (مطلق) وتبادل محدود بين شخصين. حيث يقول أن التبادل المعمم الذي يتسم بالتبادل الصريح للمنفعة تختفي فيه المفاوضات المباشرة، ولا يمكن للمنفعة أن تتحقق إلا إذا كانت الروابط الاجتماعية قد تمت صياغتها بالفعل. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تحقيق التبادل المعمم يتطلب زواج الرجال والنساء من قبيلة معينة بآخرين من قبائل مختلفة، إذ يشترط أن تكون هناك ثلاث قبائل على الأقل حتى يتسنى لهذا النظام أن يشتغل. وهذا عكس التبادل الضيق (المحدود) الذي يشترط فقط طرفين أو قبيلتين لا أكثر.

لكن وإن كان "ستروس" قد أبدى رأيه في تبادل المنفعة عندما درس فكرة النفعية المادية ل "فرايزر" وهي أن الرجال" يقاضون بأخواتهم في الزواج لأن ذلك أرخص طريقة للحصول على زوجة فإنه قد أكد على أن فعل التبادل هو المهم وليس الأشياء التي يتم تبادلها. فهو يرى أن التبادل له وظائف في تحقيق تكامل البناء الاجتماعي الأكبر. واعترض على فهم التبادل فقط من جانبه النفعي لأن علاقات التبادل حسب رأيه هي انعكاس لأنماط من التنظيم الاجتماعي، وأن هذا التبادل قبل كل شيء تنظمه معايير وقيم اجتماعية. وقد برر تصوره هذا عندما قدم بعض مبادئ التبادل كما يلي وهي:

- كل علاقات التبادل تتضمن تكاليف بالنسبة للأفراد، ولكن هذه التكاليف تختلف عن التفسير الاقتصادي أو السلوكي لأنها تنسب إلى المجتمع من حيث عاداته وتقاليده وقوانينه وقيمه لاسيما أن هذه السمات الخاصة بالمجتمع تتطلب تحمل تكاليف معينة لإرضاء النظام الاجتماعي.
- كافة الموارد النادرة والقيمة في المجتمع سواء كانت مادية كالزوجات أو رمزية كالاحترام والهيبة فإن توزيعها تنظمه القيم والمعايير. فطالما كانت الموارد وفيرة من حيث عرضها أولم تكن ذات قيمة عالية في المجتمع فإن توزيعها لا يخضع للتنظيم، لكن ما إن تصبح شحيحة أو عالية القيمة فإنه سرعان ما يتم تنظيمها.